

مقدمة

بقلم: دافيد موسى بيدكوك

إنجلترا - مايو، ١٩٩٧

لأن المتصرين فى نزاعات الماضى هم الذين حددوا روايات التاريخ السائدة بيننا اليوم . أصبح من الصعب كثيرا أن نحدد مصادر هذه النزاعات .

الصراع الدائم والمستمر فى أيرلندا الشمالية وفى فلسطين يمثل دليلا على صحة هذا الافتراض فى النزاعات المعاصرة ، ويؤكد حماقة فرض تسويات سلام بدون تحقيق العدالة أولا . تشمل هذه الصعوبة أيضا العثور على مروييات محايدة عن نابوليون وهروبه ، وتقدم بينة أخرى على أنها شكلت لكى تتوافق مع الخط الرسمى الذى يلائم المستفيدين فى الصراع الذين لم يكونوا هم عامة الناس فى إنجلترا ، وأيرلندا ، وسكوتلاندا وويلز ، بل بدلا من ذلك كانوا هم من ساندوا ويلينجتون والبرامج السلبية للدعاية السوداء التى منعت وصول صورة واضحة لإصلاحات نابوليون إلى الفقراء والجماهير المقهورة فى المملكة المتحدة . الجماهير التى بعد انتصار ويلينجتون فى واترلو وتولييه رئاسة الوزراء ، أصبحت فى حالة أسوأ مما كانت عليه قبل ذلك . الحصادى السىء من عام ١٨٢٩م ومتاعب النساجين فى شمال إنجلترا ، بالإضافة إلى المعاناة القومية الشاملة ، أشير إليها فى خطاب الملك أنها « . . . بعيدة عن سيطرة الهيئة التشريعية أو الإصلاح » ، وترقد بوضوح أمام عتبة ويلينجتون . كرئيس للوزراء كان عليه أن يتحمل عبء الغضب العام ، ومثل نابوليون من قبله ، أصبح هدفا لسخرية رسامى الكاريكاتير مثل ويليام هيث الذى رسمه ، عام ١٨٣٠ ، وهو مغمض العينين : « يلعب دور الرجل الأعمى - مع الفقراء » التعليق أسفل الصورة يقول : « لا يوجد أحد بهذا القدر من العمى مثل هذا الذى لا يرى » .

الدرس المهم المستمد من هذا الوضع هو فى الحقيقة أن جميع المربين فى مدينة لندن، مثل بارينج وروثشيلد وجميع أعضاء مجلس بنك إنجلترا، نجحوا فى استخدام ويلنجتون، ونيلسون، والقوات البريطانية لمنع أى تأثير لسياسات نابليون. أعتقد أن اللورد أكتون كان هو الذى تبنى فى وقت لاحق فى القرن التاسع عشر، رؤية نابليون مع رؤى دافيد ريكاردو وإبراهيم لينكولن. أن العالم لن يتحرر من الحروب إلا بعد أن تنقلب موائد صيارفة المال وإلى الأبد.

لسوء الحظ، كما يوضح لنا تاريخ الحروب، ذهب نداؤه هباء؛ لأنهم نجحوا من وقت لآخر فى جعل أمة تحارب أمة أخرى، بدلا من أن تحاربهم هم وسياساتهم المالية المدمرة. تركونا لكى نتأمل هذه الحقيقة، القضية التى توارت طوال القرون الماضية. والتى ينبغى إدراكها عاجلا أو آجلا، هى أن الشعب عليه أن يقاتل ضد البنوك.

كثير من الأساطير التى أنشأتها الوكالة البريطانية للدعاية السوداء، دمرتها بشدة مقالة كتبها جيس ماكرى فى مجلة الاكتشاف «Focus» فى عددها الصادر فى أبريل ١٩٩٦.

الأسطورة الأولى هى أن نابليون كان طاغية فاسدا ليس لديه أى اهتمام بشعبه. «من المغرر أن نستنتج، كتب يقول: أن نرى بوناپارت وهو يتفق الملايين على آلة الحرب، يفعل القليل من أجل عامة الفرنسيين. الحقيقة أن إصلاحاته القانونية والدستورية كانت تسبق زمانها بقرن كامل. أحد أعمال حكمه كان وضعه لدستور ثورى، ثلاثة مجالس منتخبة كانت تصوت لإصدار القوانين الجديدة، ومحكمة استئناف مستقلة، وثلاثة مستشارين يتم انتخابهم كل ثلاثة أعوام. طرح الدستور أيضا لاستفتاء قومى، وأيدته أغلبية ساحقة فى ١١ ر ١٠٧ ر ٣ صوت مقابل ١٥٦٢ صوتا. تشريع نابليونى آخر دائم هو القانون المدنى-الذى يعرف أيضا أنه قانون نابليون-الذى ما زال يسود قوانين فرنسا، وبلجيكا، ولوكسمبورج. الأسس التى يفرضها هى المساواة أمام القانون، وإلغاء النظام الإقطاعى، وحماية الممتلكات الخاصة، وحرية الرأى، وحق الطلاق. أدخل نابليون فقرة تلزم الآباء بتغذية الأبناء إذا احتاجوا إلى ذلك-حتى إذا كانوا من

البالغين - لقد أثنى عن عزمه أن يعطى الأجداد حق حماية الأحفاد في حالة سوء معاملة الآباء . هذا لن يكون مذهلاً بالنسبة للمسلمين ، إذا ما أدركوا أن ٩٦ ٪ من مواد القانون المدني (قانون نابوليون) ، استمدت من الشريعة الإسلامية المبنية على أساس فقه الإمام مالك .

استمر ماكري يفند بنجاح عدداً آخر من الأساطير ، مثلاً أسطورة تقول : إن نابوليون كان مخادعاً وكاذباً ، لا يستطيع أحد أن يثق به « وجهة النظر السائدة هي أن نابوليون كان عدوانياً مزق جميع المعاهدات ورفض صنع السلام . ولكن الحقيقة هي أن المخادعين الحقيقيين كانوا هم بريطاني وحلفاءها . لقد سعى نابوليون مراراً إلى تحقيق السلام ، ولكن ملوك أوروبا هم الذين رفضوه ، واعتبروا أن نابوليون غير جدير بالثقة ؛ لأنهم يحتقرونه ويخشون أن تكون ثورة فرنسا للتحويل إلى الجمهورية معدية» . كما كتب السياسي الهويجي (عضو في حزب بريطاني يؤيد الإصلاح عرف بعد ذلك بحزب الأحرار) إدموند بيرك إلى وزير الخارجية ويليام جرينفيل : «ليست عداوة فرنسا ، بل صداقتها ، هي الأمر المزعج حقاً . تعاملها ومثلها وانتشار مبادئها أشع كثيراً من أسلحتها» . أسطورة رئيسية أخرى هي أن إصلاحاته لم تحقق أى شيء : « خطأ آخر : معظمها مازال يعمل جيداً حتى يومنا الحاضر ، نابوليون فتح المدارس الابتدائية وأسس نظام الليسيه الحديث ، أنشأ الجامعات الجديدة ، وعشرات من مدارس القانون وكليات تدريب المدرسين . الأموال التي أنفقت على التعليم في عهد إمبراطورية نابوليون كانت أكثر مما أنفق على أى شيء آخر - وتم هذا في زمن حرب دائمة - مدهش أن « إرهابياً يعقوبياً» قام بتشجيع إنشاء المدارس الخاصة ، التي فاق عددها عدد المدارس التي أنشأتها الدولة الآن ، نظام التعليم الفرنسي يسبق كثيراً نظام تعليم إنجلترا .

كل الشكر لنابوليون ، الرجل المفكر .

عن موضوع نيلسون وويلنجتون ، قال ماكري : «ربما يكون نيلسون قد مات بطلاً في تراقا لجار عام ١٨٠٥ ، ولكن نصره أخر حرية أوروبا قرناً كاملاً» رغم أنهما قائدان ذكيان ، كلاهما كان قد جانب الصواب . بضرب نابوليون على الأرض والبحر ، حرّموا العالم من « الازدهار والحرية السياسية التي كان يمكن أن يتمتع بهما تحت حكمه» .

أمثلة أخرى للدعاية السلبية ضد نابوليون توجد في المرجع المهم الذى كتبه جون أشتون : « أعمال الكاريكاتور والهجاء الإنجليزية عن نابوليون الأول » . دياحة الطبعة التى صدرت عام ١٨٨٨ حملت الاعتراف التالى : « معظم الكاريكاتورات كانت هزلية ، والأخرى سخيقة أو حاقدة ، وبعضها فظ لا يستحق إعادة نشره » . خاصة مايتعلق بأجداد نابوليون ، الذين قال أشتون عنهم : « لقد أسهبت كثيرا فى الحديث عن أجداده ؛ لأن الهجائين الإنجليز لم يقولوا الصدق عن هذا الموضوع . لقد انحرفوا كثيرا بحماس للحظة ، وانقادوا إلى رغبات الغوغاء » .

الهجائنون مثل جورج كرويكنشانك ، الذى منح حرية مطلقة لرسم كاريكاتورات نابوليون ، انتقل من وكزات السخرية إلى الاعتراف ، فى « تمثاله لنابوليون » هو أيضا انقاد إلى « رغبات الغوغاء » : أما أنا الذى حولته إلى هيكل عظمى غير ناضج ، ونزعت عنه عبقريته من قبعته إلى حدائه ، فإننى أنجزت فقط مبدأ تبنيته منذ صباى ، لأننى أذكر الوقت الذى لم أشعر فيه بسعادة وطنية فى اضطهاد عدو إنجلترا الكبير . إن كان هو أقل من ذلك ، سوف أشعر بوخز الضمير لقسوتى ، اقتفيت أثره عبر الجليد وخلال النيران ، فى الفيضان وفى الميدان ، أهنته وحقرته وسخرت منه فى كل مكان ، طوال هذا الوقت ، مع ذلك كان هو يسير فوق الأهرامات وفوق جبال الألب ، مثل الصبية فوق الأعمدة ، ويلعب القفزية(*) (لعبة ينحنى فيها واحد ويقفز الآخر على ظهره) مع ملوك أوروبا ، ويركل تاجا مع كل قفزة يقوم بها .

بالتباين مع ذلك ، كتاب كريستيان تشيرفيلز هذا يحاول أن يقدم لنا سيرة أكثر توازنا عن نابوليون الأول ، تمثل أهمية خاصة للمسلمين لما بها من روايات شهود العيان للأحداث والمناقشات التى حدثت منذ حوالى ٢٠٠ سنة مضت بين نابوليون وشيوخ الأزهر فى القاهرة ، والتى تساعدنا على تكوين تقييم أكثر دقة عن مشاعره الدينية ، وحساسياته ، وسياساته الرسمية حول الدين ، التى بعبارة معتدلة ، كانت عكس خليط الافتراءات السخيفة الحاقدة ، والفظة التى كانت مع استثناءات قليلة ، هى مخزون سلع معظم المؤرخين والمعلقين البريطانيين منذ ذلك الحين وإلى وقتنا هذا . من المدهش أن هذا الكتاب الذى ظهر لأول مرة عام ١٩١٤ ميلادية ، لم

(*) نطة الإنجليز .

يستخدم بفاعلية أكثر لتصحيح سجل التاريخ . وأيضاً لم يبذل العرب الذين يعيشون تحت حكم الاستعمار الفرنسي ، جهوداً أكبر لاستخدام محتوياته لنزع أسلحة من يستعمرونهم . أسس معظم - إن لم تكن جميع - الصراعات المحلية والدولية كانت نتيجة للمظالم الاقتصادية التي تندفق عبر الحدود القومية . سجلات الأرشيف توضح أن نابوليون أدرك ذلك ، خاصة كيف أن ذلك أثر على العلاقة بين فرنسا وإنجلترا ، وكيف أن نظام إنجلترا المصرفي شجع على انتشارها في المحيط الدولي ليعيدوا الأنظار عن أعمالهم الخبيثة . بنوك الاحتياط والمصرفيون هم وحدهم الذين استفادوا من اقتصاديات : أفقر جارك ، التي سادت العالم منذ إنشاء بنك إنجلترا عام ١٦٩٤ . في الماضي ، كما هو الحال الآن ، نجح هذا النظام دائماً في تحويل الأنظار بعيداً عن الدور الذي يلعبه في خلق عوامل العجز المالي ، التي سببت حروب التجارة ، التي تصاعدت إلى شتى أنواع القتال . السمة المميزة لنظام إنجلترا المصرفي كانت بإلقاء اللوم على ضحاياه ، أو على عدو خارجي ، بسبب الصعوبات التي سببتها سياساته ، أدرك نابوليون أن المشاكل التي أزعجت أوروبا في ذلك الوقت - مثل مشاكل الزمن الحاضر - كانت نتيجة لتضخم الديون بسبب الفوائد التي تفرض على الديون ، وهو ما جعله يتخذ خطوات نحو إلزائها . في هذا الموضوع وحده ، وقف نابوليون رأساً وكتفاً أعلى من ويلنجتون الذي كان آلة في يد آل روتشيلد . عندما عرضوا عليه رسماً بيانياً عن إعادة سداد الدين بسبب الفوائد والفوائد المركبة ، قيل إن نابوليون علق عليه قائلاً : « من المدهش أن وحش الفوائد هذا لم يتلع الإنسانية جميعها ، كان يمكن له أن يفعل ذلك منذ وقت طويل إن لم تعترضه سموم الإفلاس والثورة » . هذا يساعد على تفسير اتفاقه مع مجلس اليهود الأعلى (السانهيدرين) بفرنسا الذي تم من خلاله توقف اليهود عن تقاضى الربا على القروض . في التاسع من شهر فبراير عام ١٨٠٧ ، اجتمع الحاخام داقيد سينزهايم مع ٤٦ حبراً ومع ٢٥ من عامة الناس في «فندق المدينة» وأكد المجتمعون موافقتهم على القرار الذي اتخذه حبرهم . كما ذكرنا سابقاً يجب أن نتذكر دائماً أن «قانون نابوليون (القانون المدني)» ، الذي كان له تأثير عملي ، ساعد على تحرير يهود أوروبا من العبودية ، كان إسلامياً بالكامل تقريباً . علاوة على ذلك ، لا يوجد شك أن فترة الأعوام الستمئة التي قضاها الإسلام في إسبانيا ، والتي يسميها

اليهود «عصرهم الذهبي»، التي كان اليهود، والمسيحيون والمسلمون يعيشون أثناءها في توافق، يمكن عزوها إلى غياب الفوائد الربوية على المعاملات المالية. رغم أن «الصراع كان دائما يصاحب نظام الفوائد، إلا أن الناس - قليلا ما يذكرون.

من وجهة النظر اليهودي / مسيحية، كراهية نابوليون يمكن أن تفهم بوضوح - خاصة في ضوء تحوله الرسمي إلى الإسلام في نهاية القرن الثامن عشر. عقب ذلك، قام رسام الكاريكاتور، جيمس جيللاري، بتصوره مرتديا عباءة، مع تعليق يقول: «دين ديمقراطي - نابوليون أصبح تركيا»، هذا قد يكون رد فعل للعناوين الرسمية في صحف «الجازيت ناشيونال» أو «المونيتير ينثير سيل» التي أعلنت تحول نابوليون إلى الإسلام يوم ٦ ديسمبر عام ١٧٩٨، واتخاذة إسم «على بوناپارت». هذا يوصلنا إلى موضوع الجدل. المهم حول محتويات هذا الكتاب. يتضح من قراءة الديباجة التي كتبها الشريف عبد الحكيم، أنه بالتأكيد كان يعلق على فقرات مختارة دون دراية ببقية محتويات الكتاب، لأنه يتحدث ببساطة عن «حب» نابوليون للإسلام وعن «إقامته المباركة» بين المسلمين. من الناحية الأخرى لدينا موقف ممن يدعون أنهم مسلمون مطلعون، الذين حاولوا شجب تحوله إلى الإسلام باعتباره عملية تجميلية بحتة: «مقامرة نفعية لمغامر ذكي ساخر، يعتقد عند الضرورة أي عقيدة يرى أنها لازمة لتحقيق أهدافه». متحدثا من تجربتي الشخصية كسياسي أوروبي نشيط تحول إلى الإسلام، نشر هذه الحقيقة كان لا يمكن له أن يساعد نابوليون سياسيا؛ لأنه يثير القوى المتباينة للإلحاد ولرأس المال إلى تحالف حماسي مؤثر له مصادر تمويل غير محدودة. لتعبئة قدر كاف من الرجال والمواد والدعاية السوداء لإفساد إصلاحاته. إحدى العقبات العشرة التي تعيق المسلمين وهم يدرسون هذا الكتاب، ويحولونه إلى سلاح مفيد، يبرز من بيان طائش لنابوليون تحدث فيه عن اعتقاده أنه قد قدر له أن يتجزأ انتصارات حرية أعظم من تلك التي أنجزها النبي محمد ﷺ، الرجل الذي يبجله كثيرا: (انظر الوثيقة رقم ٣٨).

علاوة على ذلك، نابوليون كان يعتقد أنه (مثل المهدي)، قدر عليه أن يلعب دورا رئيسيا لإعادة إحياء الإسلام. لم يكن هذا أمرا غير طبيعي بالنسبة للمتحمسين ممن تحولوا إلى الإسلام. حملته الروسية، طبقا لماكينير ويلسون، لم تكن عملا طائشا غير مدروس، بل كانت وضعا فرض عليه من خلال خيانة

غادرة. من الأفضل أن يتذكر المسلمون أن المهدي السوداني الذي اجتذب عددا ضخما من الأتباع، لا يمكن أن يكون الإنسان الذي قدر له أن يعيد إحياء الإسلام، إذ لم تتوفر لديه السمات التي جاءت في أحاديث الرسول ﷺ الصحيحة. لم يكن أمرا غير مألوف، حتى بين أنبياء الله الملهمين - عليهم السلام - جميعا، أن تدخل بعض عناصر الأمنيات الشخصية في الرسائل التي عهد الله إليهم بها، أمر وضع تماما في الآية ٥٢ من السورة ٢٢ [الحج] من القرآن:

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكُمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ...﴾

ناپوليون، مع ذلك، هو مجرد إنسان. قيل إن ذلك - ذكرى ناپوليون بقلم المحلل والناقد البريطاني، ويليام هازليت (١٧٧٨ - ١٨٣٠) - هو تمجيد لائق لبوناپارت، الذي يجب أن ينظر إليه، على أي حال، باعتباره إنسانا مستنيرا، خاصة إذا قورن بأمثال نيلسون، وويلينجتون، آل روتشيلد:

« وضع قدمه على رقاب جميع الملوك الذين استعبدوا الناس : ، وأسرف في قتل ملايين العبيد المأجورين ، الذين جاءوا بأوامر من أسيادهم لينكروا حق الآخرين في الحرية . صرح العظيمة والمجد الذي بناه ارتفع عاليا على الأرض باستعارة ما فقدته الإنسانية مرة تلو أخرى - بنيت جبهته الرائعة على مخلفات الآمال المحطمة والإيمان الممزق لأعداء الإنسانية . إذا لم يكن قد استطاع أن يحقق الحرية ، والسلام ، والسعادة لدولته ، فهو قد جعلها رعبا لأولئك الذين يغرسون النزاعات المدنية ويثيرون الحروب الأجنبية ، ويمنعهم من الاستمتاع بهذه النعم . أولئك الذين سحقوا الحرية بأقدامهم لم يستطيعوا على الأقل ، أن ينتصروا بآسها وخجلها ، بل أصبحوا هم أنفسهم أهدافا للرثاء والسخرية . إصرارهم على البقاء في ذروة الخطأ ، جلب عليهم ، تكرار الهزائم والكوارث ، والرعب والاعتداءات المتراكمة التي أعدتها كبرياؤهم المحطمة وحقدهم المحبط ضد الآخرين ، عادت عليهم عقابا عادلا مؤلما : كدسوا الفحم الملتهب فوق رؤوسهم : شربوا عميقا وطويلا مرارة كأس السم الذي أعدوه للآخرين ، التدمير الذي هددوا به أي شعب يجرؤ أن يقول : إنه حر ،

تدلى معلقا فوق رؤوسهم كجرف معد للسقوط عليهم وتدميرهم . وقفوا قليلا حائرين ، ذاهلين عن أهدافهم الشريرة ، وشعروا بضخامة أعباء الحرية ، وعظم متاعب قوتها . تخلصوا من عجرفة أبهة الدولة الملكية إلى ضآلتهم كرجال عاديين ، هزموا في انتقامهم ، ضيعوا فريستهم ، عريت خططهم من غرور كبريائهم ، لم يبق لديهم شئ سوى حقدهم المشوه ، لايجرؤون أن ينطقوا لفظا أو يحركوا إصبعاً ، سادة الأرض الذين كانوا ينظرون إلى الناس كأنهم فصيلة سفلية ، ولدوا لكي يستخدموهم ، ويستعبدوهم ، يوجهون نظرة توصل إلى الناس ، وبقلوب رعدية وألسنة خادعة ، يذكرون اسم الحرية ؛ ليضعوا الناس ثانية في قبضة يدهم الدنسة ؛ لكي يخنقوا اسم الحرية إلى الأبد .

[دون ريب ، إشارة إلى من هم مثل لافايت ، المصرفي الليبرالي الذي قال لدوق أورليانز ، عقب ثورة يوليو ، وهو في طريقه إلى فندق المدينة : من الآن فصاعداً ، سوف يسيطر المصرفيون] .

« قاوم انتهاكات الشرعية - هذه القوة الساحقة ، هذا الوحش الضارى ، الذى كان يسرع الخطى نحو فريسته فوق أجساد وعقول الشعب جميعه ، يضع خاتماً فى أنفه ، يستشق اللهب والدماء - وانتصر ، لعب بالتيجان والصولجانات ولبسها هو ، وروض الكبرياء المتوجة وجعلها أضحوكة للأثم ، هو رجل واحد ، فعل هذا ، وحينما كان يفعل ذلك ، كان فى نفس الوقت ينقذ البشرية من العار الأخير . إذا كان نابوليون فاتحاً منتصراً ، فقد انتصر على المؤامرة الكبرى للملوك ضد حق الجنس البشرى أن يكون حراً . إذا كان هو طموحاً فإن عظمته لم تبن فقط على التسليم غير المشروط بحقوق الإنسان ، ولكن ، مع نابوليون ، ارتفع أيضاً مجد الإنسان عالياً . إذا كان مستبداً وطاغيةً ، فأولاً فرنسا كانت دولة محاصرة عسكرياً ، لا يمكنها أن تدافع عن نفسها بطلقات ورقية من العقل ؛ ثانياً ، ولكن رئيسياً ، هو لم يكن ولا يمكن أن يصبح ، طاغية بحق إلهى ، الطغيان فيه لم يكن مقدساً ، ولم يكن أبدياً ، لم يكن مرتبطاً غريزياً بعصبة صداقة مع طغاة آخرين : لم تجزها جميع قوانين الدين والأخلاق » .

«كتاب نابوليون والإسلام» : يقدم مساهمة كبرى فى فهم شخصية تعلقت - بوضوح - بالقرآن ورسالته ورسوله ﷺ بأكثر مما يُوصف بأنه اهتمام عابر سواء كان نابوليون، أو لم يكن، يصوم رمضان ويؤدى الصلوات الخمس اليومية، ذلك له فى الحقيقة أهمية ثانوية (يوجد آلاف كثيرون ممن يقولون إنهم مسلمون وهم لا يفعلون ذلك) ما له أهمية، مع ذلك، هو أنه أدرك بصدق أن الإسلام أسمى من أى دين فى أى مكان آخر، وأخذ الكثير منه لاستخدامه الذاتى، ولبناء إمبراطوريته. كما يقول القرآن: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧] علاوة على ذلك، استنتج بصدق أن دين إبراهيم سوف يعاد إحياءه من خلال علومه. تشير التطورات الحالية فى ماليزيا وأجزاء أخرى من العالم الإسلامى إلى أن المسلمين بدأوا يدركون هذه الحقيقة المهمة. لم يعودوا يكتفون بتكرار الابتهالات عن أمجاد الماضى - بدأوا الآن يتأملون نصائح الرسول، خاصة عندما قال: «اطلبوا العلم ولو فى الصين» (*). ونحن الآن فى بداية قرن جديد من يبرز لإحياء ثروات الإسلام سوف يحسن إذا تأمل رؤية نابوليون:

« أرجو ألا يكون قد فات الوقت الذى أستطيع فيه أن أؤحد جميع الرجال العاقلين والمثقفين فى الدولة، وأن أنشئ نظام حكم متناسق، مؤسس على مبادئ القرآن، التى هى وحدها الصادقة، والتى يمكنها أن تقود الناس إلى السعادة . . . المسيحية تبشر فقط بالعبودية والتبعية . . . » (انظر الباب الرابع - رسالة نابوليون الأول، رقم ٣-١٤٨).

* * *

(*) [موضوع] جامع بيان العلم ١/ ٨٢٧، وقال الألبانى فى «ضعيف الجامع»: «موضوع»

ديباجة

بقلم: الشريف عبد الحكيم

باريس - ١٠ / ٤ / ١٩١٤

الأمة الوحيدة فى التاريخ التى نشدت ، لا أن تسيطر على الإسلام ، بل أن تتحالف معه لكى تمدن بقية العالم ، كانت ، دون ريب ، هى فرنسا .

هذه السياسة شكلت أثناء حكم فرانسوا الأول ، وقام نابوليون بتنفيذها . ولكن أعاق ذلك الخلافات اللاهوتية التى لم تتوقف عن تعقيد طموحات السلالات الحاكمة . من ناحية كانت توجد عقيدة الثالوث المقدس المسيحية ، وتوجد على الناحية الأخرى عقيدة التوحيد الإسلامية .

الآن ، وضحت المشكلة ، لم تعد موضوع الحملات الصليبية بأى معنى لها . بما أن العالم الإسلامى ما زال منقسما سياسيا ، فقد ابتلعت القوى الأوروبية . ما هو الموقف الذى سوف تتخذه القوى الأوروبية ، خاصة فرنسا ؟

مع احترامها لعقائدهم ومصالحهم ، إما أن تقبل المسلمين كمواطنين لقوة الحماية ، أو أن تعتبرهم كما مهملا ؟ توجد فى الحقيقة سياستان فقط : إما أن تعامل هؤلاء المسلمين كشعوب مهزومة محتلة ، أو أن تنظر إليهم كأطفال تبتهم .

السياسة الأولى محفوفة بالمخاطر ، إنها تعنى إقرار التفرقة والامتيازات التى تخلق فقط عدم الرضا مع جميع عواقبه .

السياسة الثانية - سياسة التبنى مبنية ببساطة على أساس العدل ، بينما لا تركز السياسة الأولى إلا على الاستبداد . أليست سياسة الإنصاف هى التى سوف تثبت صلاحيتها وبقاءها ؟

جاءت لحظة الاختيار ، فأى قرار سوف تأخذه فرنسا؟

يبدو لى أن طرح هذا السؤال يستلزم الإجابة عليه . أولئك الذين مثلى يعرفون بلدهم فرنسا ويحبونها ، لا يستطيعون أن يروا احتمال وجود أى تردد تجاه هذا الموضوع لدى سلالة الثورة الكبرى .

فى شمال إفريقيا ، حققت فرنسا الهدف الذى لاحقته زمنا طويلا . هى الآن تضم داخل مستعمراتها عددا من السكان المسلمين يساوى على أقل تقدير عدد مواطنيها أنفسهم . بأى سياسة تحوى هذه الحشود ، وكيف ترعاهم ؟ لهذا الأمر ، كرس المؤلف نفسه ، باختيار ذاتى ، ولكنه أذعن لسلطة كانت مبدجة فى العالم الإسلامى ، وفى أوروبا .

بعد أن أحضره قدره إلى مصر ، أقام نابوليون علاقة وئام ، ليس فقط مع سلطان القسطنطينية ، بل أيضا مع شريف مكة ، وسلطان دارفور و«بيك» تونس ، وتراسل مع صاحب تيبو ، وهكذا أصبح العالم الإسلامى جميعه تحت أنظاره .

بالنسبة له ، إذا تحدثنا بصدق ، لم يكن الأمر موضوع غزو ، بل موضوع تحالفات ، وهذا يفسر سياسته فى مصر وجميع بلاغاته اللاحقة . كان مشرعا بقدر ما كان محاربا ، حاول أن يتغلغل فى الإسلام ، ويتعمق فى فهمه أكثر من هذا ، هو أحب الإسلام ، وأصبح واحدا منا .

أدعو الله أن يكون هذا الكتاب تذكرة مفيدة لإخوانى المسلمين لإقامة نابوليون المباركة بينهم ، وأن يكون نموذجا للفرنسيين الذين يقودون الآن سياسة جزء كبير من العالم الإسلامى .

هذا هو هدف الكتاب .

عبد الحكيم ١٠ / ٤ / ١٩١٤ - باريس

ملاحظة خاصة:

موضوع هذه الدراسة هو فلسفى واجتماعى معا . نحن نبحت النظريات عن الإسلام التى وضعها وطبقها بونابارت ، أثناء حملته المصرية . تملك فكرة الإسلام عقل الإمبراطور إلى درجة كبيرة ، ولكن تلك المسألة تقع خارج مجال هذه الدراسة ، واستطعنا فقط أن نشير إليها بإيجاز .

البيانات التاريخية ، التى جمعت تراكمت ، وكان علينا أن نختار أكثر النصوص دقة ، مهما يكن اتجاهها الظاهر .

يبدو أن هذه الوثائق تؤثر على - ليس فقط - ماضى العلاقات الفرنسية الإسلامية ، بل أيضاً مستقبل هذه العلاقات .